

ومعنى العام الجدير

وسميدهم وشقيهم ؛ فليس من واحد منهم يصدمه حادث أليم
إلا وينم على ذهنه ذلك السؤال المحزن « لماذا نحن هنا ؟ وما معنى
هذا الدور الذى نلعبه ؟ »

إلى أين نسير بين التفاؤل والتشاؤم الأستاذ محمد حسن ظاظا

« أم ترى نحن هنا — كما يقول غرورنا — لنلعب على
مسرحة الحياة دورنا الخالد ؟ »
جوفروي

—

ثم نحن ندخل الدنيا ونفوسنا مليئة بالآمال والشهوات
والرغبات ، وتدفعنا هذه النفوس النهمة الجائعة إلى تحقيق إرادتها
وسعادتها ، فيقف العالم أمامنا ليحارب تلك الإرادة بكل ما يستطيع
ومن هنا تقاسى ألم الحرمان ونسخط على حياة وجدنا فيها نهمين
نريد أن نشبع ونريد الأقدار أن نجوع !! ولكننا نميل مع ذلك
إلى اتهام أنفسنا فتتجلى وتتخلق بالصبر والقناعة والرضى إلى أن
تنحط علينا كارثة هائلة ، فنفتح أعيننا من جديد لرى آمالنا
المتلاشية ، ولنصرخ من أعماق قلوبنا المجروحة ، وعقولنا المتزلزلة ،
ولنتساءل فى لوعة وأنين : « ترى لم نحن هنا على ظهر الأرض ؟ »
وليس لكأس الحياة وحدها الإصبع الأكبر فى ذلك السؤال ،
فإن لسعادتها أيضاً إصبعاً بل أصابع كثيرة ، ذلك أنا نسمد
فى المبدأ عند ما نحقق رغبة من رغباتنا ، ولكن إذا ظلت سعادتنا
وقتها طويلاً — وقلمنا يحدث هذا — فسرعان ما تحبو نارها ،
وتنمحي روعتها ، فيقل شعورنا بها شيئاً فشيئاً ، وينقلب على مر
الأيام إلى كره فتورة وسخط ، لأننا لا نجد لها حينذاك كافية لمطامعنا
ومحققة لجميع آمالنا ، ومن ثم نرى الحياة عاجزة عن إشباع رغبة
السعادة فينا ، فنشعر بأن مسراتنا أوهام ، ورغباتنا فخاخ نحن أول
من يقع فيها . ولا نستطيع أن نهم أنفسنا هنا كما نهمها أمام
الكأس لأن السعادة بين أيدينا ؟ !

ثم نحن ندو فى المدن كأعظم المخلوقات فتمتلئ شجاعة وثقة
وغروراً ، ولكن عند ما نخرج إلى الطبيعة المكشوفة ، ونجد
أنفسنا وحيدين أمام سماء لا نهائية ، وأفق تتلوه آفاق ، وجبال
شاذجة هائلة ، ونجوم عديدة لا تحصى ، وقرى تختفى فى غابات ،
وغابات تختفى فى فضاء الطبيعة ، بل وعند ما نرى أن هذه الدنيا
تسبح فى هواء الكون مع عوالم أخرى كثيرة ونحن حيالها
لا شيء ، ألا ننسى حينذاك سعادتنا وشقاءنا ، ونروح متسائلين :
« أين نحن من العالم وما دورنا فيه ؟ »

وحينما ننظر فى تاريخ البشرية ، ونعرف أنها جاءت عاروة

انتهى عام وبدأ عام جديد ، وانتهت من قبل أعوام وبدأت
أعوام جديدة ، وستنتهى غداً أعوام لتبدأ من بعدها أعوام جديدة ؛
فإلى أين نسير وإلى أى مصير ؟ أترى ندور فى حلقة مفرغة يتصل
أولها بآخرها وآخرها بأولها ، فلا يمضى عام إلا ويتلوه عام آخر ،
ولا ينقضى خلق إلا ويخلفه خلق آخر ؟

لشد ما يحار الإنسان عند ما يأل نفسه هذا السؤال فى مطلع
كل عام ! ولشد ما يجد الحياة حوله لنزاً مفضلاً يستصعب على
الحل ، ولا يفرج فى ناحية إلا ليتعقد ويضيق فى النواحي الأخرى !
ولقد وقف هذا الموقف بالأمس الأستاذ Joffroy فراح
يتساءل أمام تلاميذه « بالسربون^(١) » عن النرض من حياتنا
تحت الشمس ، وعن معنى الدور الذى نلعبه على مسرح العالم .
وراح يعدد الظروف التى تستثير فى نفوسنا هذا الموضوع ،
والنظرات التى تلقى على مسامعنا ؛ ونحن نورد لك اليوم موجزاً
لأقواله ، ثم نقب عليه بما نريد

يقول^(٢) : « لا يكاد يصل الإنسان إلى هذا السؤال إلا أخيراً ،
ولكن مشاغل الحياة لا تلبث مع ذلك أن تصرفه عن التفكير
فيه ؛ والناس حياله سواء ، عالمهم وجاهلهم ، وغنيهم وفقيرهم ،

(١) عاش الأستاذ جوفروي من سنة ١٧٩٦ إلى سنة ١٨٤٢ م وقد
انتج منهج الأخلاق بالسربون فى عام ١٨٣٠ — ١٨٣١ بالمحاضرة التى
توجزها وناق عليها فى ذلك المال . أنظر « قضية المصير الإنسانى » فى
الكتاب الفرنسى « لالاند » واسم « مطالعات فى فلسفة العلوم »

(٢) لقد حاولنا أن نبسط آراءه موجزة وبفلس طابعها الأسيل بقدر
المتطاع .

حلقات مجهولة ناقصة ، وقد خرجت هذه الحلقة لتتحطم بدورها كما تحطمت أخوات لها من قبل ، فمن نحن إذا ؟ وأى حق لنا في الأمل والفرور ؟ ؟

في كل مكان إذا حدود ، وفي كل مكان ظلام وعجز والغاز تتلو الغازاً ! ونحن نجد أنفسنا متساثلين وحائرين كلما وقعنا تحت تأثير هذه الظروف ، وكل منا قد انتحر إزاء هذا الشكل الكبير ، وكل منا قد لجأ للمقائد التقليدية ليفتح بما فيها من أقوال ووعود ، ولكن خيط حياتنا لا يفتأ يهتز ويتذبذب كلما تساءلنا في حزن وأسى عن أصلنا ودورنا ومصيرنا المحتوم ! !

ولكن الأمر يبدو بالرغم من ذلك كله أمون مما نظن ! وذلك لأن الحياة والموت ، والسعادة والشقاء ، وعظم الخليفة وظلام التاريخ ؛ كل ذلك وإن أحرز القلب والعقل والضمير فهو يتحدث إلينا بألف لسان ليثير ثورة جارفة تصد اليأس ، وتدود النوم ، وتدفع الإنسانية إلى البحث الشاق الطويل (١) ! !

إلى البحث الشاق الطويل ؟ أجل إلى البحث الشاق الطويل ! وإذا كانت الأديان قد وفرت علينا مشقة الحل فما ينبغي لعقولنا النورانية أن تقف عند حد أو أن تقنع بالقليل . ولن يضيرنا أن نكون حلقة في سلسلة مجهولة الأطراف ، فحسبنا أننا نعيش لنلعب دورنا المحتوم في الحلقة التي نعيش فيها ، ولن يضيرنا أن تعرض في حياتنا للكوارث والآلام ، فحسبنا أن نعلم أن قانون الحياة صارم على الجميع وأن مجدنا وعظمتنا في التحمل والكفاح والصراع أكثر مما هما في الدعة والسرور واللين . ومهما يكن شأننا ضئيلاً في الكون الهائل الخفيف فلا شك أننا نستطيع أن نسمو بمقولنا وقلوبنا إلى عليين ، وأن ندرك كل عام من أسرار الحياة والوجود ما يقيم لنا وزناً في العالم المجهول . وإذا كان العلم يشير إلى سلسلة متدرجة متروية في المخلوقات فلنسأل أين كنا نحن البشر وما عسى أن يكون دورنا الحق في الوجود ؟ وإذا كانت ميزتنا الكبرى قائمة في « العقل » كما يقول أرسطو فلا مندوحة لنا من جملة تمتد ناشئة إلى سر الحياة والكون

(١) نهاية مرجز الأستاذ جوفروى

أو شبه عارية ، ثم قامت منها شعرة ، وقام بين هذه الشعوب نزاع فساد الفرس أولاً ثم الأغريق . ثم الرومان ، ثم البرابرة ؛ بل وحينما نذهب إلى الأصقاع المجهولة شمال آسيا وأواسط أفريقيا وأمريكا ، وجزر المحيط ، لنجد فيها قومًا مختلفون في اللغة والفكر ولا يعرفون مثلنا لماذا خلقوا ولا من أين أتوا ؛ عند ما ننظر في ذلك التاريخ البشرى بلبلة البهيم ، وفي الأجناس كفاحها وصراعها ، ألا نشعر بعموض هائل يكتنفنا من كل ناحية ؟ أما هذه الإنسانية التي نحن جزء منها ؟ من أين أنت ؟ وأيان تذهب ؟ أترى هي كأعشاب الأرض وأشجار الغابات تخرج من التراب وإليه تعود ؟ أم ترى هي هنا - كما يقول غرورها - لنلعب على مسرح الحياة دورها الخالد المحتوم ؟ وأى دور ذلك وما عسى أن يكون ؟ لقد سقطت المدنية الشرقية تحت أقدام المدنية اليونانية ، كما سقطت المدنية اليونانية تحت أقدام المدنية الرومانية ، وكما سقطت هذه الأخيرة تحت أقدام المدنية الجرمانية ، فترى أى مصير سيكون لهذه الأخيرة ؟ أهو الانتصار المحتوم ثم السقوط كما حدث لسابقتها ؟ وماذا يكون دور الإنسانية إذا ؟ أهو الدوران في حلقة مفرغة ؟ أم هو الترقى والتقدم ؟ وأين الترقى والتقدم من وحشية الحروب وفظاعتها ؟ وهكذا يحار الإنسان كثيراً وسط هذه النجوم فيتساءل عبثاً عن القانون الذى يسوق قطيع البشرية بهراوته من أصل مجهول إلى مصير مجهول !

ثم « العلم » بماذا يحدثنا ؟ إنه يقول إننا مجرد حلقة في سلسلة المخلوقات ! ؛ فالأرض قد استعمرت في المبدأ بالنباتات الضخمة التي لا تقارن بها نباتاتنا ، والتي لم تكن لتظل بأوراقها الواسعة العريضة كائناتاً ما ! ، ثم جاءت ثورة جارفة هدمت تلك الخليفة الأولى كما لو كان خلقها عبثاً ، وأحلت محلها خليفة أخرى هي الزواحف والأسماك ! ! ثم جاءت من بعد هذه خليفة ذوات الأربع الهائلة فهدت الطريق للإنسان الذى طفا أخيراً على السطح كحلقة في سلسلة سابقة ! وقد عاشت كل خليفة من هذه الخلائق السابقة على الأرض كما نعيش الآن ، فلم لا يأتى يوم ننقرض فيه ونفسح عظامنا أمام الخلائق الجديدة مجرد حفريات ضخمة شائبة بحويها الناحف وتمجب منها العقول ؟ ؟ إننا حلقة بين

ليأتينا منه كل عام بمجديد في نواحي ذلك الثلاث المقدس، ثالثاً : الغاية ! ولا يجوز أن نقيس حياتنا أفراداً وجماعات إلا بهذا

المقياس . ولئن كان مقدراً للأجيال ألا تبلغ ذلك الكمال الثالث فإنما شاء الله ذلك لكيما تبقى للإنسانية غاية تعيش من أجلها وفي سبيلها تموت . فلننظر إذاً أي قدر من ذلك الكمال قد تركته لنا الخلائق والأجيال الماضية تراناً ثميناً مجيداً، ولنعرف كيف نصونه ونحافظ عليه ونسلمه لأبنائنا وديعة كريمة جميلة ؟ ثم تفكر في ماذا عسانا نستطيع أن نزيد عليه من الحق والخير والجمال كما فعلت الأجيال السابقة لئلي ما زیده ناطقاً باسمه على مر الدهور والأجيال

أجل يجب أن تفكر في ذلك ونسى في تحقيقه ونحاسب أنفسنا بصده عند مطلع كل عام جديد

ويجب على هذا الأساس أن نرحب بالعام وأن نتفائل بمقدمه ، وأن نرجو الله داعين متينين أن يكشف فيه للإنسانية عن درجات أخرى من سلم ذلك الكمال المنشود

محمد حسن ظاظا

مدرس الفلسفة بمدرسة الحديثو
اسماعيل الثانوية الأميرية

قلبي لنفسى ...

إن مبدأ الإسلام ، إقرار السلام ؛ ومع ذلك لجأ إلى القوة وأخذ بنظام التسليح ، فشرع القتال ثم قال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ... » ومن قبل جاءت المسيحية عزوفة النفس زهيدة العين تسبل العفوعن الجارم ، وتبيح الخدين للأطم ، وتترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؛ ومع ذلك قال المسيح : « ما جئت لألقى سلاماً بل حرباً »

فهل معنى ذلك إلا أن القوة هي شريعة الله يحفظ بها سلام العالم ، ويقر عليها نظام الحياة ، ويدفع بها بعض الناس عن بعض حتى لا تنفس الأرض ؟

لقد جارت أوروبا كلها ليلة عيد الميلاد بنشيد المسيحية المشرقية : « وعلى الأرض السلام » حتى جفت الشفاء ، وُبُحت الحناجر ، ثم أصبح الناس فإذا إيطاليا بلد البابا تحشد الجيوش إلى حدود الصومال ، وفرنسا تجيب على التحدى بمجنود السنغال ، وهتلر وجون بول يقفان متحفزين متلاحظين : هذا من وراء الديمقراطية ، وذاك من وراء الدكتاتورية !!

فهل يحسب الذين يسيطون مصر عن إرساد الأهبة وإعداد القوة ، بحجة ما تكلف من المال ، ونجسهم من الأعمال ، إنهم يطيعون الله ويخدمون الوطن ؟ .

ابنه عبر المالك

الحق والخير والجمال . ومهما يكن من شأن النكوص المارض في خط السير فلا شك أننا نقدر جميعاً تلك الخطوات الهائلة التي قطعها الإنسانية منذ فجر التاريخ إلى اليوم نحو التقدم والمدنية والنور . فاليوم علم بعد جهل ، وديمقراطية بعد عبودية واستبداد ، وسلام بعد حروب وغارات ! أقول « سلام » وأعلم تماماً ما سوف تقول ! وأين السلام من تلك الشعوب المتناصرة المتنابهة التي يحفر كل منها للآخرهوة نحيفة للموت الدائم القطيع ؟ ولكن رويدك فالفكرة موجودة ، وترداد بجمرة الخطر اختاراً ، حتى إذا انفجر البركان وأصاب الإنسانية منه أقصى سمير استوت على عرشها وسادت سيادة أمجج وأضمن كما سادت بالأمس القريب فكرة تحرير الرقيق بعد قرون الدل والعبودية والانحطاط !

إلى الكمال إذا نحن نسير ! إلى كمال الحق والخير والجمال ؛ ولا تفاضل بين الأجيال إلا على

ذاك الأساس . ولا ينبغي أن نكون لنا غيلة غير هذه